أثر السنة النبوية في الثقافة العربية

د . محمد بن ناصر بن محمد القرني
كلية الشريعة وأصول الدين بأبها - قسم السنة وعلومها

المقدمة

الحمد لله صاحب النعم والشكر لله صاحب الكرم والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأمم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام صاحب الجود والكرم وعلى آله وصحبه وسلم .. أما بعد :

فإن السنة المطهرة والتي تمثلت في أقوال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله وتقريراته وصفاته كان لها الأثر الكبير في تصحيح كثير من المغالطات في المفاهيم الثقافية العربية القديمة . ولا ينكر ذلك إلا مكابراً ومعانداً فقد أُرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - والناس في تخبط في أوحال الظلام . في زمن استخف الناسُ بعقولهم حتى أصبحوا يسجدون للشجر والحجر والمدر من دون الله - عز وجل - وكانت العقلية الثقافية لهم في ذلك الوقت تحكمها شريعة الغاب ، فالقوي منهم يأكل الضعيف ويظلمه ويخذله وقد عبّر عن هذه العقلية الشاعر الجاهلي المعروف في معلقته الشهيرة وهو زهير بن أبي سلمى[1] حيث قال :

جريء متى يُظلم يعاقِب بظلمه ... سريعاً وإلا يُبدأ بالظلم يظلم

---

(1) هو زهير بن أبي سُلمى وأبو سلمى هو ربيعة بن رياح ينسب إلى مزينة ولد في الحاير جنوب الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية سنة ٥٢٠ م ، وتوفي سنة ٦١٠ م عن عمر يناهز التسعين عاماً .

ومن لم يذد عن حوضه بسلامه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم[1]

ومن هنا كانت السنة النبوية المطهرة من أهم روافد الثقافة العربية الصحيحة حيث صححت مسار هذه الأمة العربية الإسلامية حتى وصلت إلى القمة وغيرت الكثير من المغالطات الثقافية التي كانت تُسَيِّر الناس في ذلك الوقت وهذا البحث في نظري هو جد مهم وسأتناوله إن شاء الله وفق الخطة التالية :

أولاً : المقدمة وتشتمل على ما يلي :

١ – سبب الكتابة في هذا الموضوع .

٢ – خطة البحث .

ثانياً : المبحث الأول :

أثر السنة النبوية في تصحيح مفهوم للعبودية لله – عز وجل – .

ثالثاً : المبحث الثاني :

أثر السنة النبوية في ترسيخ وحدة الأمة الإسلامية وإزالة الفرقة .

رابعاً : المبحث الثالث :

أثر السنة النبوية في مقت ثقافة ظلم الآخر .

خامساً : المبحث الرابع :

أثر السنة النبوية في نشر ثقافة التعامل مع الناس جميعاً برفق ولين .

سادساً : الخاتمة وتتضمن أهم النتائج والتوصيات .

ثم أختم البحث بفهرست الموضوعات .

---

(١) شرح المعلقات السبع لأبي عبد الله الحسين الزوزني ص ١٥١ – ١٥٨ مكتبة

ولاشك أن السنة المطهرة التي تعتبر المصدر الثاني بعد كتاب الله من مصادر الشريعة الإسلامية أهم روافد الثقافة العربية كيف لا وهي التي فصلت ما أجمل في كتاب الله وبينت ما أشكل على الناس في جميع أمورهم العامة والخاصة فبعد أن كان الناس يعبدون غير الله ويزعمون أنهم يعبدون الله - عز وجل - تغير الحال فأصبحت الأمة أمة توحيد وعقيدة واحدة .

وبعد أن كان الناس متناحرين متفرقين أصبح المسلم أخو المسلم لا عصبية ولا عنصرية .

وبعد أن كانت تسود بينهم شريعة الغاب ترسخت عندهم شريعة السنة والكتاب وفق ما شرعه رب الأرباب ومنزل الكتاب وهازم الأحزاب وذلك عندما أعلن الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس جميعاً بأن الميزان الذي يجب أن يوزن عليه الناس هو التقوى عندما تلا عليه الصلاة والسلام قول الله عز وجل : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

عند ذلك استقام الأمر وتبدلت ثقافة التمييز بسبب العرق واللون إلى ثقافة المساواة بين الأفراد والجماعات ويُقدّم المرء بحسب قربه من الله عز وجل ويؤخر بسبب بعده عن الله وعدم تنفيذه لأوامره .

وقد أدركت المملكة العربية السعودية أهمية السنة النبوية في تصحيح مسار الأمة فأوجدت كلية الحديث في الجامعة الإسلامية وأوجدت أقسام السنة النبوية وعلومها في كليات الشريعة وأصول الدين وشجعت حفاظ السنة النبوية وذلك بإيجاد المسابقات في أبحاث السنة وحفظها ومن أشهرها مسابقة الأمير نايف بن عبد العزيز وفقه الله الحفظ السنة والتأليف فيها نسأل الله عز وجل أن يوفق الجميع لكل خير وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

كتبه

د/ محمد بن ناصر بن محمد القرني
الأستاذ المشارك في كلية الشريعة وأصول الدين
جامعة الملك خالد بأبها

المبحث الأول

أثر السنة النبوية في تصحيح مفهوم العبودية لله عز وجل

إن الإنسان بفطرته يولد على محبة التعبد لإله يرى أنه ينفع ويضر ويعطي ويمنع ويثيب ويحاسب فإن وجد من يدله على التعبد الصحيح لله وحده دونما سواه نجا وأفلح وإن وجد من يدله على عبادة الشرك خاب وخسر وهلك ويقرر الرسول – صلى الله عليه وسلم – هذا المعنى في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ما من مولود إلا يُولد على الفطرة فأبواه يُهودانه وينصرانه ويُشركانه فقال رجلٌ : يا رسول الله ! أرأيت لو مات قبل ذلك ؟ قال : الله أعلمُ بما كانوا عاملين »[1] .

وهذا تقرير ممنْ لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه أن كل مولود يولد على فطرة التدين والعبودية لله جل شأنه ، وإنما تطرأ عليه التغيرات بعد ذلك .

والفطرة كما عرفها العلماء ، قيل هي ما أُخذ عليهم في أصلاب آبائهم ، وإن الولادة تقع عليها حتى يحصل التغير بالأبوين .

وقيل هي ما قضى عليه من سعادة أو شقاء يصير إليها . وقيل : هي ما هُيِّء له[2] .

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب القدر – باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٤ / ٢٠٤٨ .

(2) المصدر السابق ٤ / ٢٠٤٧ .

ويشير في القول الأول إلى ما ذكره الله في محكم التنزيل حيث قال : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾[1] .

وقد بعث الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى أمته وهم غارقون في الشرك والضلال وعبادة الأصنام من حجر ومدر وشجر ومأكولات وغير ذلك ، وقد نصبت على الكعبة المشرفة يعبدونها ويعظمونها من دون الله ويزعمون أنهم بذلك يتوصلون إلى عبادة الله - عز في علاه - عندما قالوا فيما ذكره الله عنهم ﴿ ما نعبُدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى إن الله يحكم بينهم في ماهم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار ﴾[2] .

ولما كانت ثقافة الشرك بالله - عز وجل - هي السائدة في ذلك الوقت وهي متمكنة في النفوس المريضة ، بقي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة عشرة سنة في مكة المكرمة يدعو إلى توحيد الله - عز وجل - معلناً لهم قول الله سبحانه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[3] مفاصلة واضحة وإعلان صريح أن من مات على الشرك فمأواه النار وبئس القرار ومن مات على التوحيد ولديه بعض المعاصي والمنكرات فهو تحت مشيئة الله - عز وجل - إن شاء غفر له وإن شاء عذبه ولا يخلد في النار .

---

(1) سورة الأعراف ، آية ١٧٢ .

(2) سورة الزمر ، آية ٣ .

(3) سورة النساء ، آية ٤٨ .

ولأن ثقافة الشرك هي السائدة بين الناس عند مبعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – كانت الخطوة الأولى لكل من يرسله الرسول – صلى الله عليه وسلم – – لتبليغ دعوة الله إلى جميع الأمصار هي الدعوة إلى توحيد الله ويتضح ذلك من خلال تتبع وصيته – صلى الله عليه وسلم – لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن معلماً وداعياً إلى الله فقال فيما رواه البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : لما بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – معاذاً نحو اليمن قال له : « إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ... الحديث »[1] .

وقد كان منهج النبي – صلى الله عليه وسلم –أن يبين لمن سأله عن الواجب عليه التوحيد أولاً وكذلك للمدعوين والمخاطبين فقد ورد عند الطبراني عند ابن عباس – رضي الله عنهما – : « أن رجلاً قال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أنشدك الله آلله أرسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى ؟ قال : نعم فأسلم ... »[2]

([1]) صحيح البخاري – كتاب التوحيد – باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله ٨ / ٥١٩ .

([2]) المعجم الكبير للطبراني ٨ / ٣٠٦ (٨١٥٠) .

وعند مسلم من حديث عمرو بن عَبَسَة أنه « أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال ما أنت ؟ قال : نبي الله . قلت : آلله أرسلك ؟ قال : نعم قلت بأي شيء ؟ قال : أوحد الله لا أشرك به شيئاً .. الحديث ... »[1] .

وفي كتب النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى ملوك ورؤساء الدول آنذاك ما يدل على أن دعوته تركزت في المقام الأول على الدعوة إلى توحيد الله ففي كتابه – صلى الله عليه وسلم – : إلى هرقل عظيم الروم ما يدل على ذلك عندما قال[2] : « من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلامٌ على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيّين و ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ »[3] .

ومما تقدم يتضح أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – صحح فطرة التّعبُّد التي يجدها الإنسان في نفسه فهو لابدّ أن يَتَعَبّد ولكن لمن ؟ ولابدّ أن يَعْبُد ولكن كيف ؟ فبين الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن العبودية لا تكون إلا لله الواحد القهار الذي بيده ملكوت السموات والأرض لا شريك له وأن العبادة لله لابدّ أن تكون خالصة لوجه الله الكريم دونما سواه وأن تكون

---

(1) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب إسلام عمر بن عبسة ١ / ٥٦٩ (٨٣٢) .

(2) صحيح البخاري – كتاب الوحي ١ / ٧ .

(3) سورة آل عمران اية ٦٤ .

موافقة لما جاء في الكتاب والسنة وبهذا ترسخت ثقافة العبودية لله عز وجل – بدل العبودية للوثنية فلله الحمد والمنة والفضل لله عز وجل ثم الكتاب والسنة .

ولا غرابة أن يرسخ الإسلام ثقافة التوحيد في المجتمع بدل ثقافة الشرك والوثنية لأن جزاء الموحد الجنة التي أعدها الله لعباده الصالحين ففي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار »[1] .

وفي حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه – عندما كان رديف النبي – صلى الله عليه وسلم – على الحمار قال : « فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً »[2]

لذلك يجب على كل مسلم أن يتوجه بجميع أعماله إلى الله عز وجل دون ما سواه فهو النافع الضار العزيز الجبار الذي لا تضره معصية العاصي ولا تنفعه طاعة المطيع .

([1]) أخرجه مسلم كتاب الإيمان ، باب من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ١ / ٥٨ .

([2]) المصدر السابق الموضع السابق .

المبحث الثاني

أثر السنة النبوية في ترسيخ ثقافة وحدة الأمة الإسلامية

لقد جاء النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الأمة وهي متفرقة متناحرة تسودها ثقافة الاعتداء على الآخرين فالأوس والخزرج يتقاتلون والعرب يتفرقون ويتحاربون وتسودهم الفوضى والعصبية القبلية والحمية الجاهلية وهذه كلها يمقتها الإسلام فكان من أعماله – صلى الله عليه وسلم – الأولى المصالحة بين الأوس والخزرج وجمع الناس على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) كما أخبر بذلك الصادق المعصوم – صلى الله عليه وسلم – – فيما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله »[1] .

وإذا أردنا الوقوف على أحوال الناس قبل بعثة الرسول – صلى الله عليه وسلم – نسمع كلمة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشي ملك الحبشة عندما جاء وفد قريش المكون من عبد الله ابن ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي ويطلبون أن يعيد المهاجرين من الصحابة إلى كفار قريش . فسألهم النجاشي قائلاً : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم ؟ فقال جعفر

---

(1) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة ١ / ١٤ .

- رضي الله عنه - : « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهنا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... »[1] .

وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد ورجاله ثقات ما عدا محمد بن إسحاق قال عنه ابن حجر[2] صدوق يدلس ورمي بالتشيع والقدر .

والمتأمل في هذا الحديث يجد أن هناك تغيير شامل لكثير من المفاهيم العربية القائمة على الجهل والتعصب الأعمى غير العقلاني ويتضح ذلك من رغبة الوفد المذكور سابقاً أن لا يسمع النجاشي كلام جعفر بن أبي طالب ومن معه رضي الله عنهم أجمعين .

والأمور التي تقدمت في الحديث تدعو إلى الاجتماع والمحبة والألفة بين أفراد المجتمع ، وقد صدع النبي - صلى الله عليه وسلم - بآية عظيمة وضعت الأسس العامة للوحدة والاجتماع عندما تلا قول الله عز وجل : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾[3] .

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده ١ / ٢٠١ - ٢٠٢ .

(2) تقريب التهذيب ٤٦٧ .

(3) سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

وفي هذه الآية دعوة صريحة إلى وجوب اجتماع الأمة على كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقد حث النبي - صلى الله عليه وسلم - على كل أمر من شأنه أن يجمع ولا يفرق وأن يوحد ولا يشتت فقال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة »[1] .

وحقاً إن هذه التعليمات النبوية من أسس بنيان المجتمع الواحد الذي بُني على أساس متين وهاهو الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - يبين ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في إحساس بعضهم ببعض حيث يقول : « المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كلُّه وإن اشتكى رأسه اشتكى كلُّه »[2] .

تصوير بليغ عظيم ممن لا ينطق عن الهوى في معالجته الربانية لثقافة التمزق والعداء بين الناس .

وفي تصوير آخر بليغ قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[3] .

والمتتبع لما شرعه الله - عز وجل - لعباده من العبادات والمعاملات تدل على وجوب وحدة الأمة الإسلامية قلباً وقالباً ويتضح ذلك من الأمور التالية :

---

(1) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٦ .

(2) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين ٤ / ٢٠٠٠ .

(3) المصدر السابق الموضع السابق ٤ / ١٩٩٩ .

١ – شرع الله لعباده خمس صلوات في اليوم والليلة وتصلى جماعة في المسجد يجتمع فيها المسلمون ويعرف بعضهم بعضاً وجعل ذلك واجباً .

كما ورد في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم ... الحديث »[1] .

ومن هنا يتضح أن صلاة الجماعة تدل على وحدة الأمة ، وكذلك الاجتماع لصلاة الجمعة التي تعتبر أوسع في الوحدة وجعلها الشارع الحكيم واجبة على المستطيع فقد أخرج الترمذي عن أبي الجعد الضمري قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه »[2] وقال حديث حسن .

وكذلك الاجتماع في صلاة العيدين حتى حث الحيّض وذوات الخدور أن يخرجن لشهود الصلاة ودعوة المسلمين .

كما أخرج البخاري عن حفصة – رضي الله عنها – قالت سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « تخرج العواتق وذوات الخدور والحيّض وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين »[3] .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب وجوب صلاة الجماعة ١ / ١٩٧ .

(٢) أخرجه الترمذي كتاب الجمعة باب ما جاء في ترك الجمعة من غير عذر ٢ / ٥ – ٦

(٣) أخرجه البخاري كتاب الحيض باب شهود الحائض العيدين ١ / ١٠٥ .

وكذلك الاجتماع للحج الأكبر من جميع أقطار العالم في صعيد عرفات يعبدون رباً واحداً ويهدفون إلى هدف واحد وكان هذا الاجتماع بأمر رباني لجميع المسلمين الذين تتوفر عندهم الاستطاعة عندما قال تعالى : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[2]

ومما تقدم يتضح أن الإسلام عالج بحكمة عادلة ما كان سائداً بين الناس من الظلم والجور والتفرق وثقافة إيذاء الغير والاعتداء عليه دون تفكير أو روية بما تؤول إليه الأمور من السوء والضعف وبعد هذه المعالجة تكونت الدولة الإسلامية العريقة التي امتدت في الآفاق شرقاً وغرباً وأصبح المسلم في أي مكان هو أخو المسلم ، ويشعر أنه جزء منه .

---

(1) سورة الحج ، آية ٢٧ .

(2) سورة آل عمران ، آية ٩٧ .

المبحث الثالث

أثر السنة النبوية في مقت ثقافة ظلم الآخر

بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – في قوم سادت بينهم الفوضى الاجتماعية والتخبطات السياسية وكأن شريعة الغاب هي التي تحكمهم فثقافتهم تقول إن الظلم شجاعة والكذب سياسة والغدر رجولة ولحتقار الآخر رفعة ، والزنا حُرّية وغير ذلك من المفاهيم المغلوطة وكان من الأمور السائدة المغلوطة الظلم لذلك مقته الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكشف عواره وآثاره السيئة على الفرد والمجتمع فقال فيما يرويه عن ربه – عز وجل – عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما روى عن الله تبارك وتعالى : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلتُهُ بينكم محرماً فلا تظالموا ... الحديث »[1] .

قال العلماء : معناه تقدستُ عنه وتعاليتُ ، وأصل التحريم في اللغة المنع فسمي تقدسه عن الظلم تحريماً لمشابهته للمنوع في أصل عدم الشيء .

ومعنى (فلا تظالموا) أي لا تتظالموا والمراد لا يظلم بعضكم بعضاً .

وبين الرسول – صلى الله عليه وسلم – خطر الظلم وأنه يمتد إلى الحياة الآخرة فقد روى ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة »[2] .

وفي حديث جابر رضي الله عنه قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »[3] .

---

(1) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٤ .

(2) المصدر السابق الموضع السابق ٤ / ١٩٩٦ .

(3) المصدر السابق الموضع السابق .

قال القاضي عياض : قيل هو على ظاهره فيكون ظلمات على صاحبه لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ، ويحتمل أن الظلمات هنا ، الشدائد وبه فسروا قوله تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾[1] أي شدائدها ويحتمل أنه عبارة عن الأنكال والعقوبات[2] .

قال النووي قال العلماء : « والظلم مستحيل في حق الله سبحانه وتعالى كيف يجاوز سبحانه وليس فوقه من يطيعه وكيف يتصرف في غير ملك والعالم كله في ملكه وسلطانه ، وأصل التحريم في اللغة المنع »[3] .

وفي معرض ذمه – صلى الله عليه وسلم – وتقبيحه للظلم قال : « إن الله عز وجل يُملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته »[4] .

قال النووي : « معنى يُملي يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة ، وهو مشتق من الملوة وهي المدة والزمان بضم الميم وكسرها وفتحها ، ومعنى لم يفلته لم يطلقه ولم ينفلت منه . قال أهل اللغة : يقال أفلته أطلقه وانفلت تخلص منه »[5] .

ومن أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتضح أنه يعالج مشكلة حقيقية في المجتمع ضربت بأطنابها في تخوم الأرض ، وأصبح ضررها واضحاً لكل ذي عينين ، كيف لا ، وهي تعتبر ثقافة متأصلة لدى الناس ،

---

(1) الأنعام ، آية ٦٣ .

(2) المصدر السابق الموضع السابق .

(3) شرح النووي ١٦ / ١٣٢ .

(4) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٧ .

(5) شرح النووي ١٦ / ١٣٧ .

ويعتبرونها من الأمور المحببة ، وهو من الأعراف المتأصلة لديهم كما قال قائلهم الذي ذكرت سابقاً (ومن لم يظلم الناس يظلم) .

ولسوء هذا الخلق وأثره على الفرد المجتمع أعد الله لفاعله عذاباً في الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾[1] .

والظلم يتسبب في خراب الديار ، ويؤذن بهلاك الدول وزوالها حتى أن بعض العلماء قال إن الله عز وجل قد يطول أمد الدولة الكافرة إذا كانت عادلة ويعجل بهلاك الدولة الظالمة حتى وإن كانت مسلمة ويدل على ما تقدم قول الله – عز وجل – ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾[2] .

نعم لما ساد الظلم وغاب نور العدل الذي عليه قامت السماوات والأرض هلكت الأمم وزالت الدول لذلك حرص الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يبرز للناس هذا الخلق المشين ويجليه للناس حتى يبتعدوا عنه لأنه جاء – صلى الله عليه وسلم – لينقذ الأمة من الظلمات إلى النور ويؤسس دولة تحكم بشرع الله وترسي دعائم العدل في الأرض إلى قيام الساعة وقد حصل هذا ولا زال في هذا الكون من يقوم بذلك ويحكم بشرع الله كالمملكة العربية السعودية ، وقد حذر العلماء والعقلاء من الظلم والجور ومجاوزة الحدّ في كل أمرٍ من أمور الحياة ولقد أحسن القائل عندما قال :

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدراً فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ يدعو عليك وعين الله لم تنم

---

(1) سورة الزخرف ، آية ٦٥ .

(2) سورة الكهف ، آية ٥٩ .

ولكون الظلم يقع في الغالب في غصب الأرض وجرح العرض حذر الرسول – صلى الله عليه وسلم – من ذلك لينبه على خطورة ذلك فقال : « من ظلم من الأرض شيئاً طُوقه من سبع أراضين »[1].

قال النووي : « وأما التطويق المذكور في الحديث فقالوا : يحتمل أن معناه أنه يحمل مثله من سبع أرضين ويكلف إطاقة ذلك ، ويحتمل أن يكون يجعل له كالطوق في عنقه كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ وقيل : معناه أنه يطوق إثم ذلك ويلزمه كلزوم الطوق بعنقه ، وعلى تقدير التطويق في عنقه يطول الله تعالى عنقه كما جاء في غلظ جلد الكافر وعظم ضرسه ، وفي هذه الأحاديث تحريم الظلم وتحريم الغصب وتغليظ عقوبته وفيه إمكان غصب الأرض »[2] .

إنها نظرة شاملة لكل مناحي الحياة لكي تستقيم الأمور وأما ما يتعلق بجانب العرض فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيءٍ فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم »[3] .

---

(1) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض ٣ / ١٤٠ .

(2) شرح النووي ١١ / ٤٨ – ٤٩ .

(3) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب من كانت له مظلمة ٣ / ١٣٩ .

إنه التأسيس لأمة عظيمة لها القيادة والريادة في الدنيا والآخرة إذا نفذت أوامر الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – .

إنه تغيير جوهري لثقافة أمة كانت تعتمد في ثقافتها على الخرافة والدجل لكي تصبح أمة تعتمد في ثقافتها على ما على الرسول الأعظم نزل ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[1] .

ومن هنا يتضح أن نظام الإسلام شامل وكامل وصالح لكل زمان ومكان فعندما يحصل للمسلمين كبوة ، عليهم مراجعة مدى تطبيقهم لتعاليم الرسول – صلى الله عليه وسلم – فإنه الميزان الحساس الذي يمكن أن توزن عليه الأمور فبقدر قربنا نصعد إلى العلياء وبقدر بعدنا نهبط إلى الحضيض وما ربك بظلام للعبيد .

---

(1) سورة النساء ، آية ٦٥ .

المبحث الرابع

أثر السنة النبوية في تصحيح ثقافة التعامل مع الناس جميعاً

إن ثقافة التعامل مع الآخر – وأعني بالآخر كل إنسان سواءً كان مسلماً أو كافراً – يجب أن تكون حسب تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، فقد كان التعامل قبل مجيء الرسول – صلى الله عليه وسلم – مبني على ثقافة التعالي والفوقية وعلى حسب الأنساب والأحساب فجاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – ونظم هذه الثقافة ، وبين أن التعامل على هذا الأساس باطل وقد وضع الرسول – صلى الله عليه وسلم – جميع الأسس العامة للتعامل مع الناس وبين أن الدين نظام شاملٌ كامل لجميع مناحي الحياة :

ومن الأسس التي يقوم عليها التعامل مع الآخر ما يلي :

١ – حسن الخلق

لقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحسن الناس خلقاً لأن خلقه القرآن الذي فيه وبه نجاة الأمة في الدنيا والآخرة وقد أخرج مسلم عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : « كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحسن الناس خلقاً »[١] .

وقد حث الرسول – صلى الله عليه وسلم – أمته على التحلي بهذا الخلق النبيل الذي يؤثر تأثيراً بليغاً في التعامل مع الآخر فقال : « إن خياركم أحاسنُكم أخلاقاً »[٢] وقال أيضاً : « إن من أخيركم أحسنكم خُلُقاً »[٣] .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد باب جواز الجماعة في نافلة ١ / ٤٥٧ .

(٢) أخرجه البخاري – كتاب الأدب باب حسن الخلق ٧ / ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ٧ / ١٠٦ .

نعم إن المتأمل لما يتركه الخلق الحسن على الآخر سواء كان في مجال التعامل أو مجال الدعوة أو مجال التعليم يدرك المكانة المرموقة التي جعلت صاحب الخلق الحسن من أحب الناس إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقد أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً »[1] .

٢ – الرفق واللين في التعامل

إن الرفق والرحمة ولين الجانب للمؤمنين من أخلاق النبي – صلى الله عليه وسلم – لما لهذه الأخلاق من أثر عظيم على الفرد والمجتمع فقد أخرج البخاري عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال : « أتينا النبي – صلى الله عليه وسلم – ونحن شببة .... » وفيه « وكان رفيقاً رحيماً ... الحديث »[2] .

وقد ذكر الله – عز وجل – اتصاف الرسول – صلى الله عليه وسلم – بهذا الخلق العظيم الذي يدل على حرصه على هداية أمته والخوف عليهم من الوقوع في عذاب الله حيث قال : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »[3] .

وبين الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن الرفق في الأمور يجعلها مقبولة وميسرة ، عندما قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه »[4] .

---

(1) المصدر السابق باب مناقب عبد الله بن مسعود ٤ / ٥٩٠ .

(2) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم ٧ / ١٠١ .

(3) سورة التوبة ، آية ١٢٨ .

(4) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب فضل الرفق ٤ / ٢٠٠٤ .

وقال أيضاً : « من يُحرم الرفق يُحرم الخير »[1] وفي حديث آخر : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يُعطي على ما سواه »[2] .

قال النووي – رحمه الله – : « وفي هذه الأحاديث فضل الرفق والحث على التخلّق وذم العنف ، والرفق سبب كل خير ؛ ومعنى يعطي على الرفق أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره . قال القاضي : معناه يتأتّى به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يتأتّى بغيره »[3] .

ولأهمية الرفق واللين في كل شيء دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – على من شق على المسلمين عندما يتولى عليهم في الحديث الذي أخرجه أحمد عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله : « اللهم من رفق بأمتي فارفق به ومن شق عليهم فشق عليه »[4] وفي رواية : « من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به »[5] .

ومن هذه الأحاديث يتضح أهمية الرفق لكل مسلم فالداعية إلى الله يحتاجه في دعوته حتى يتحقق المقصود .

والراعي يحتاجه مع رعيته حتى تحصل له دعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، والمعلم يحتاجه مع طلابه والتاجر يحتاجه مع من يتعامل معهم من العمال ومن يشترون منه وهذه المعاني يجمعها قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « الرفق لا يكون في شيء إلا زانه » وقد تقدم .

---

(1) أخرجه مسلم في الموضع السابق .

(2) أخرجه مسلم في الموضع السابق .

(3) شرح النووي ١٦ / ١٤٥ .

(4) أخرجه أحمد في مسنده ٦ / ٦٢ ، ٩٣ .

(5) أخرجه أحمد في مسنده ٦ / ٦٢ ، ٩٣ .

٣- الصدق :

إن الصدق من الصفات الحميدة التي أثنى الله عليها في محكم التنزيل حيث قال ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾[١] وقال أيضاً ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾[٢] وقد بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن الصدق طريق يوصل إلى جنات النعيم وأن خلافه وهو الكذب طريق يوصل إلى الجحيم عندما قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً »[٣] والبر اسم جامع للخير كله وقيل البر الجنة .

والصدق يجب أن يكون مع الله أولاً فيأتمر المسلم بأمره وينتهي عما نهى الله عنه وزجر ثم مع نفسه ثانياً فلا يغشها ويخدعها بالتمرد والعصيان فيصاب بالخذلان ثم الصدق مع الناس في كل شيء بالقول والفعل مع المسلم وغير المسلم لأن ديننا عالمي ، وقد تؤثر المعاملة الطيبة في الناس أكثر مما تؤثر الكلمة ، وأعتقد أن المعاملة الحسنة التي كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعامل بها الناس على مختلف أعمارهم وأديانهم وأنسابهم كان له الأثر الكبير في دخول الناس في دين الله أفواجاً .

تنبيه :

قد يعتقد بعض الناس في هذه الأزمان أن معاملة غير المسلم معاملة سيئة هو من الإسلام ، وقد يخلط بعضهم بين الولاء والبراء وبين المعاملة

---

(١) سورة الزمر آية ٣٣ .

(٢) سورة المائدة آية ١١٩ .

(٣) باب قبح الكذب وحسن الصدق ٤ / ٢٠١٣ .

مع غير المسلمين والواقع أن الأمرين مختلفان ، فتعامل المسلم مع غير المسلم في البيع والشراء والكلمة الطيبة لا يناقض مبدأ الولاء والبراء والدليل على ذلك فعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – حيث تعامل مع اليهود في البيع والشراء فقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : « اشترى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من يهودي طعاماً ورهنه درعه »[1] .

ولا يستطيع مسلم أن يقول أن هذا الفعل يخالف مبدأ الولاء والبراء ، وقد ذكر العلماء أن الحكمة من عدول الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأخذ هذا الطعام من مياسير الصحابة قد يكون لبيان جواز المعاملة مع غير المسلم حتى ولو كان الطلب يوجد عند المسلم .

ومن هنا يتبين أن الإسلام حث أتباعه على الأخلاق الفاضلة والرفق واللين والصدق مع كل الناس ، حتى يسعون الناس بأخلاقهم قبل أقوالهم وأفعالهم ، وخلاصة القول أنه يجب على المسلم أن يتبع آثار النبي – صلى الله عليه وسلم – في تعامله مع الناس عموماً لأن المسلمين هم ورثة الأنبياء يدعون إلى دين الله ويُنْقِذون الناس من الشرك والضلال ، فلابد أن تكون أساليبهم في الدعوة أساليب راقية تُستَمَدُّ من الكتاب والسنة ، ولا تقتصر الأسس السليمة في التعامل مع الناس على ما ذكرت ولكن ذكرت نماذج فقط خشية الإطالة وما تركت أكثر بكثير مما ذكرت ، ولكن كتاب الله عز وجل وسنة النبي – صلى الله عليه وسلم – مليآن بالأمور الدالة على وجوب حسن المعاملة مع الآخرين .

---

(1) أخرجه البخاري كتاب الرهن ، باب الرهن عند اليهود وغيرهم ٣ / ١١٦ من موسوعة السنة .

الخاتمة

بعد هذه الوقفة القصيرة مع موضوع مهم غير كثيراً من المفاهيم المغلوطة التي سيطرت على الناس قديماً وحديثاً وهو موضوع أثر السنة النبوية في الثقافة العربية يمكن القول بأن خلاصة البحث تتلخص فيما يلي :

١ – أن السنة النبوية المطهرة عالجت قضايا الأمة معالجة صحيحة وجذرية .

٢ – أن ثقافة التعبد تنشأ مع الإنسان فإن لم تُوجّه التوجيه الصحيح تنحرف عن الجادة .

٣ – أن وحدة الأمة الإسلامية مطلب شرعي لا يمكن إهماله ، وعليها ترتكز أعمدة البناء الإسلامي الشامخ .

٤ – أن الظلم للآخرين سبب لحصول الخزي في الدنيا والآخرة وأنه يعجل بهلاك الأمم .

٥ – أن التعامل الحسن مع جميع الناس على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وأعمارهم وأديانهم سبب من أسباب هداية البشرية هداية شرعية .

٦ – أن سوء المعاملة مع الناس قد تكون سبباً من أسباب الصد عن دخول الناس في دين الله عز وجل .

٧ – أن الصدق درجته عند الله عظيمة فهو طريق إلى جنات النعيم .

هذه بعض النتائج التي خلص إليها البحث ونسأل الله جلت قدرته أن يجعل ذلك في ميزان حسناتي وجميع من قرأه ونشره .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

فهرست المصادر والمراجع

الكتاب	المؤلف
١ – صحيح البخاري	لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري
٢ – صحيح مسلم	لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري
٣ – الجامع الصحيح	للإمام محمد بن عيسى الترمذي
٤ – سنن أبي داود	لأبي داود سليمان بن الأشعث .
٥ – سنن النسائي	لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب .
٦ – سنن ابن ماجه	لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني
٧ – مسند الإمام أحمد	للإمام أحمد بن حنبل .
٨ – مصباح الزجاج	لشهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري
٩ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري	للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
١٠ – شرح النووي على صحيح مسلم	محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الشافعي
١١ – تهذيب التهذيب	ابن حجر العسقلاني
١٢ – تقريب التهذيب	ابن حجر العسقلاني
١٣ – المعجم المفهرس للقرآن الكريم	محمد فؤاد عبد الباقي
١٤ – المعجم المفهرس للأحاديث النبوية	د: أ- ى. ونسنك .
١٥ – المعلقات السبع	لأبي عبد الله الحسين الزوزني